الشعر المصرى فى مائة عام

للاستاذ محمد سيد كيلانى

الساعاتى

من ١٨٢٥ — ١٨٨٠

— ٨ —

هو محمود صفوت الساعاتى ابن مصطفى أغا الزيله لى [1] ولد بالقاهرة فى عام ١٨٢٥ م ونشأ بها إلى أن بلغ الاثنى عشر عاما . ثم توجه إلى الاسكندرية مع أبيه . وفى العشرين من عمره بدا له أن يقوم بفريضة الحج فسافر إلى الحجاز . وهناك التحق بحاشية أمير مكة الشريف محمد بن عون فأكرم مثواه وأحسن ملتقاه حتى أنساه وطنه وصحبه فظل ملازما له فى مقامه ومرتحله. وسافر معه إلى غزواته المعروفة فى نجد واليمن ووصف كثيراً من وقائعه فى شعره .

ووقعت بينه وبين أدباء الحجاز منافسات تلتها مناظرات كما هو شأن الأدباء فى كل عصر وفى كل موطن .

وفى عام ١٨٥٠ م عزل الشريف محمد بن عون عن إمارة مكة فهاجر إلى مصر مصطحباً الساعاتى الذى سافر معه إلى الآستانة بعد ذلك بقليل . وهناك وقع نزاع أدبى بينه وبين الشيخ زين العابدين المكى .

وفى عام ١٨٥١ م عاد إلى مدينة القاهرة فعين فى إحدى الوظائف الحكومية . ثم ألحق بحمية سعيد باشا . ثم نقل إلى وظيفة كتابية بمجلس الأحكام المصرية . ثم عين بعد ذلك بديوان المالية، فعضواً بمجلس أحكام الجيزة والقليوبية. وتوفى سنة ١٨٨٠ م وله ديوان مطبوع .

***

شعره :

١ — فى الحجاز :

نزل الساعاتى عند أمير مكة الشريف محمد بن عون وهو ممن يدعون الانتساب إلى الإمام على . فأراد الشاعر أن يحظى لديه وينال عطفه . فلو أنه سلك فى مدائحه مسلك شعراء مصر فى عصره من ابتداء القصائد بغزل طويل ممل متكلف ، واستخدام الصناعة اللفظية من جناس وطباق وغيرهما لما ظفر بشىء مما يرجو ، ذلك لأن الأشراف لا يطربون لهذا ولا يحفلون بقائله . فلم ير الشاعر بداً من أن يكون شيعياً يهتم بالمعانى الشيعية التى تستهوى آل عون .

(١) الزيلة بلدة فى الأناضول .

صنيع الرجال ، فطلبن من أزواجهن المشاركة فى الإهانة « فكانوا يأخذون الرأس ويدخلونه بيوتهم فتضربه النسوة بالمداسات » ولم يفرغ حاملو الرأس من مهمتهم حتى امتلأت جيوبهم وبعد أن جبوا عليه مصر والقاهرة وحصلوا مالاً كثيراً ، وغلقت أسواق القاهرة وحوانيتها خمسة أيام ابتهاجاً بزوال عهده « وسبب ذلك ما كان اشتمل عليه من الظلم ومصادراته للسالم وتنوعه فى الظلم والعسف »

وآلت الرولة :

بعد أن هدأت الفتنة وأصبح الشجاعى فى خبر كان ، قبض كتخدا نائب السلطنة على أعوانه والمتآمرين معه ، وأطلق سراح المعتقلين ، وكان من جملتهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى تسلطن بعد ذلك على الديار المصرية ، ومن الله على الذين استضعفوا فى الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

منى الترحم عليه :

قال قاضى القضاة نجم الدين بن شيخ الجبل : كنت ليلة نائماً فاستيقظت وأنا أحفظ البيتين الآتيين :

عند الشجاعى أنواع منوعي ... من العذاب فلا يرحمه الله

لم تغن عنه ذنوب قد تحملها ... من العباد ولا مال ولا جاه

وكان ذلك فى نفس الليلة التى قتل فيها الشجاعى نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

عطيه الشيخ

مفتش المعارف بالمنيا

أنظر إليه حين يقول فى مدح الشريف عبد الله بن عون :

ومن ذا الذى أحرى بمجدك منهم ... ومدحك فى التنزيل جاء محرراً
وأعلى ملوك الأرض كسرى ولم يكن ... له نسب دانى البتول وحيدرا
وإن كان بالإيوان أظهره فخره ... فحسبك بالمحراب والبيت مظهرا
إلى خير خلق الله تنمى أصولكم ... فكنتم به فى الناس أكرم عنصرا
وأنتم بنوه والذين بفضلهم ... أتى الروح بالذكر المبين مخبرا
ومن ذا الذى بالشعر يبلغ مدحكم ... وفى هل أتى ما قد أتى وتصدرا

وانظر إليه حين يمدح شيخ السادة العلوية بالمدينة

أهلا وسهلا بابن بنت محمد ... نجل الحسين ومعدن الحسنات
أهلا بزهرة فرع أصل طاهر ... غرسته أيدى الوحى والآيات
شرف على الشهب المنيرة مشرف ... مترفع عن عرضة الشبهات
نسب قد انتظمت عقود جمانه ... بيد التعفف لا يد الشهوات
أورومة طابت فروع أصولها ... رفعت بإسناد وصدق رواة
تلك التى غرس النبى لدوحها ... فأتت بكم من أطيب الثمرات

فأنت ترى أن اهتمام الشاعر بالمعنى كان مسيطراً عليه فى هاتين القصيدتين وفى غيرهما مما نظمه فى أشراف مكة . وقد اجتهد فى الضرب على الوتر الحساس الذى تهوى إليه أفئدتهم . وتقمص الساعاتى فى هذه المدائح شخصية ابن هانىء الأندلسى وأغار على كثير من معانيه . ومثال ذلك قوله .

ومن ذا الذى أحرى بمجدك منهم ... ومدحك فى التنزيل جاء محررا

فمأخوذ من قول ابن هانىء :

مرحت بمبعثك السموات العلا ... وتنزل القرآن فيك مديحا

وقوله :

وينظم فى الوصف الشريف قلائدا ... وأبلغ منها قول أحكم حاكم

مأخوذ من قول ابن هانىء

والله فى عليائك أصدق قائل ... فكأن قول القائلين هذاء

• • •

مدح الساعاتى الشريف ابن عون بقصيدة جاء فيها

رقت لرقة حالتى الأهواء ... وحنت على البانة الهيفاء
وبكى الغمام على من أسف وقد ... كادت تمزق طوقها الورقاء

بدأ المدح بالشكوى مما أصابه من حوادث الدنيا . ثم مزج الشكوى بالفخر بنفسه وبشعره ، ولم يكن الرجل صادقا فى فخره بل قلد المتنبى فى ذلك . قال :

أنا ذلك الصل الذى عن نابه ... تلوى المنون وتلتوى الرقطاء

وقد نظر فى هذا إلى المتنبى حيث يقول :

أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت ... وإذا نطقت فإننى الجوزاء

وقال :

وفمى هو القوس الأرن ومقولى الـ ... وتر الشديد وأسهمى الانشاء
فكر ينظم فى البديع فرائدا ... من دونها ما يلفظ الدأماء

وهذا فخر كاذب قلد فيه القدماء . وقد أراد أن يعظم من أمره ويرفع من شأنه فصور الناس وقد أشهروا عليه حرباً وأجمعوا أمرهم على كيده . قال .

ولع الزمان وأحله بعد اوتى ... إن الكرام لها اللئام عداء
أنحط قدرى الحادثات وهمتى ... من دونها المريخ والجوزاء

وهو فى هذا ينظر إلى ابن هانىء الأندلسى حيث يقول :

طويت لى الأيام فوق مكايد ... ما تنطوى لى فوقها الجوزاء

ثم استطرد إلى التحدث عن سوء حظه ، وذكر أنه قصد أناساً كثيرين فلم يجد عندهم ما يسره حتى أفنى عمره دون أن يتحقق له أمل واحد من آماله . قال :

أفنيت عمرى فى طلاب أولى الندى ... متعللا بعسى يجاب نداء

وهو غير صادق فيما يقول . ذلك لأنه عند ما حل فى مكة كان فى العشرين فإذا فرضنا أنه نظم هذه بعد إقامته عند ابن عون بعامين أو أكثر فإنه فى هذه الحال لم يكن قد أفنى عمره كما يحدثنا ثم تخلص من هذا المدح فقال :

غضت عن العلياء طرف برهة ... ثم انجلت عن ناظرى الأقذاء
فعلمت أن الأكرمين هم الأولى ... شرفوا وباقى العالمين هباء
لم يبق غير بنى النبى محمد ... فى الأرض من يعزى إليه سخاء
قوم همت جدواهم وبمدحهم ... فى كل واد هامت الشعراء

ولو تأملت فى هذه الأبيات لوجدت روح ابن هانىء ماثلا فى وضوح وجلاء ، وطريقة الساعاتى فى التخلص إلى المدح هى نفس طريقة ابن هانىء . وإليك أبيات ابن هانىء لتوازن بينها وبين أبيات الساعاتى .

وطفقت أسأل عن أغر محجل ... فاذا الأنام جبلة دهماء
حتى دفعت إلى المعز خليفة ... فعلمت أن المطلب الخلفاء
جود كأن اليم فيه نفاثة ... وكأنما الدنيا عليه غثاء

إلا أن ابن هانئ، كان يمدح الخليفة الفاطمي الذي امتد ملكه من المحيط الأطلسي غربا إلى بلاد العرب شرقاً، أما الساعاتي فكان يمدح عاملا بسيطاً من عمال الدولة العثمانية ، وهو معرض للعزل في أي وقت . وقد عزل فعلا ورحل إلى الآستانة، وقد جعل الساعاتي من هذا الحاكم الصغير ملكا تهابه الملوك وتعنوا لسلطانه وتقصر عن بلوغ مرتبته . وقال :

ملك سما سلطانه وتقاصرت ... عنه الملوك لأنها أسماء
ولو ارتقوا يوما لأخمص انتهوا ... لمراتب ما فوقهن علاء
وصلته أبكار العلاء كواعبا ... من قبل ما وصلتهم الشمطاء

ولا شك في أن الشاعر قد أسرف في التكلف وبالغ في الكذب وليس مما يعقل أن رجلا كالساعاتي يقول مثل هذا المدح في شريف مكة عن عقيدة راسخة وإيمان ثابت .

وظاهر من هذه القصيدة أن ابن عون قد أعرض عن الساعاتي مدة من الزمن بسعي بعض الحساد ، فشكا الرجل من حدوث هذه القطيعة . قال :

ما زلت أجلو وصفكم حتى بدا ... كالشمس لا رمز ولا إيماء
وحبوتموني بعدها بقطيعة ... أكذا يكون تكرم وحباء
من لي بخبط الأنبياء فعلتي ... عز الدواء لها وجل الداء

وقال قبل ذلك بأبيات :

يا أيها الملك المفدى عودة ... يا من لديه لا يخيب رجاء
أوليتني الآلاء ثم تركتني ... مثل الذي حلت به اللأواء
ما كان ظني الذي أملته ... فيكم وأنتم سادة نجباء
أو لستم أدرى بما كنتم به ... تعدونني ومتى يكون أداء
إن كان دأبي حسن حظي ربما ... يشقى الفصيح وتنعم العجماء

هذه الأبيات إذا قرأناها تركت في أنفسنا أثراً عميقاً ، ذلك لأن الشاعر هنا لم يكن متكلفاً ولا متصنعاً ، وإنما كان يرسل القول من أعماق فؤاده ، فيعبر في هذا الشعر عما انطوى بين جوانحه من ألم شديد وحزن عميق ، وبسط يديه أمام شريف مكة راجياً منه أن يعمل على إزالة هذه القطيعة ، وعدة أبيات هذه القصيدة سبعة وسبعون بيتاً ، منها ثلاثون في الفخر ، وحوالي عشرة أبيات في الشكوى والباقي في المدح .

وللساعاتي قصيدة هائية مدح بها الشريف علي بن عون . وقد سلك فيها مسلك مروان بن أبي حفصة في هائيته المشهورة التي مطلعها :

طرقتك زائرة فحي خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها

أما قصيدة الساعاتي فمطلعها

جادت بوصل بعد طول دلالها ... مطبوعة جبلت على إدلالها

وعجز البيت ضعيف التأليف تافه المعنى ، وربما كان سبب ذلك اهتمامه بالجناس بين « دلال » و « إدلال »

وقال :

وسرى يطيف خيالها جنح الدجى ... من بعد ما جنحت إلى عذالها
زارت على شوق محبها وما ... زالت تجر إليه في أذيالها
سفرت فقلنا قد تألق بارق ... يزجي رشاش الطل في أطلالها
وتكلفت صلة المتيم عندما ... نظرت كمال البدر دون كمالها
غيداء جادت بالزيارة بعد ما ... جارت وملّ الدهر دون ملالها
سمحت بما أسدت إلي وإنما ... صلة المعنى من تمام خيالها
حسناء قد تاهت على كأنها ... حسنية والمجد في سر بالها

ولن نجد في هذه الأبيات من المعاني سوى وصف تلك الغادة بالجمال والدلال ، وقد شعر الرجل بافلاسه وخلو جعبته من المعاني فستر ذلك العجز باصطناع المحسنات اللفظية ، ثم انتقل من ذلك إلى المدح وقد أورد بعض المعاني الشيعية كقوله :

ولقد علمت بأن مدحي قاصر ... وعلاكم التنزيل في إجلالها
أفبعد ما جاء الكتاب مفصلا ... تتفاضل البلغاء في أقوالها

* * *

وقال يمدح الشريف محمد بن عون ويهنئه بانتصاره في بلاد اليمن :

بشرى بنصر بالفتوح ميسر ... ودوام عز حيث سرت مسير

والمعنى ضعيف كما ترى ، وفي البيت جناس بين « ميسر » و « ميسر » ومنها

نشرت لك الأعلام من فوق العلى ... فطويت ذكرى كل باغ مقتر

وهو جيد المعنى ، وفيه طباق بين « نشر » و « طوى »

(يتبع)

محمد سيد كيلاني